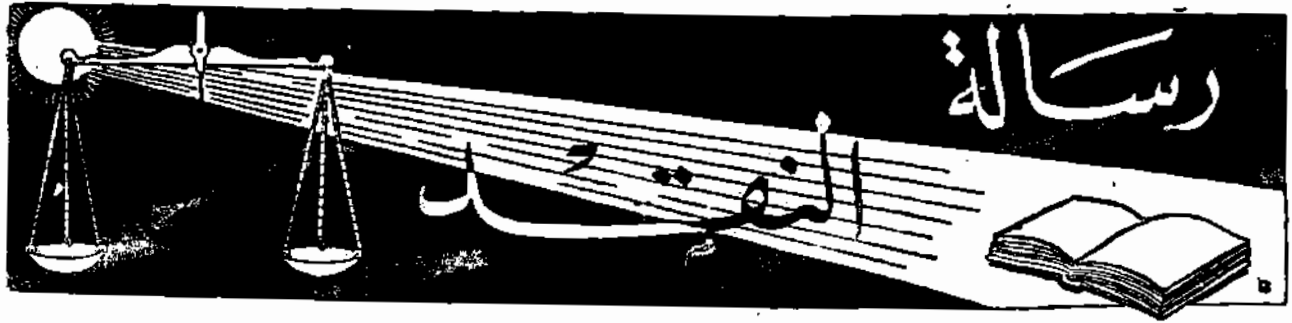




نظرات في كتاب :

« بعث الشعر الجاهلي »

تأليف الدكتور مهدي البصير

للأديب خليل أحمد جلولو

— ٢ —

— — —

والأكاذيب ، ثم يمرض لها بالبحث والتحليل ، والاستقراء والاستنتاج ، والتعقل والمحاكمة ، لينسج منه المؤلف بحثاً يستطيع بعده أن يقول : قد بعث امرأ القيس حقاً ؟ ولكن الدكتور أغرق في تجنب الآراء المتضاربة والاختلافات المتناقضة ، وما جرب أن يشطح وينطح ، وابتعد عن كل أناة وثبت فيما تقض وأبرم . فهو يجحد جحداً مطلقاً ، وينكر بغير حق شأنه في التصديق ، ويروي ما يدعم مزاعمه ، وينفل عما يدحضها ، وهذه خصال يتبرأ منها الباحث العلمي .

إذا أردت أن أنتهي من نقد طريقته السقيمة في البحث فاسمح لي أن أحدثك يا قارئ عن برهانه على حقيقة نسبة « قفانبك » . وما هو برهانه ؟ لا يتجاوز ما يذكره في ص ١٠ « أن القصيدة رويت في القرن الثاني ، وأن كبار الرواة وقائهم كالفضل الضبي وأبي عمرو بن العلاء والأصمى أحياء لم يطمعوا فيها » ... يظهر من هذا أن الدكتور مطمئن إلى ما يرويه هؤلاء كل الاطمئنان ، ولم ير حاجة في الإطالة ، فقد جاء بالبرهان الناصع والدليل القاطع هل يستطيع الدكتور أن يقول إن كل مارواه هؤلاء صحيح سالم من التجريح ؟

لا شك أن هؤلاء ممن لم تفسد مروءتهم ولم يعرفوا بنسق ولا مجون ولا شعوبية ، والمجب أنهم قد كذبوا أيضاً واتحلوا . فأبو عمرو بن العلاء يمتدح بأنه وضع على الأحنى بيتاً هو :
وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلما
ويعترف الأصمى بشيء من ذلك . ويقول اللاحق إن سيويه سأله عن إعمال العرب « فملاً » فوضع له هذا البيت :

خذر أموراً لا تفسد وآمن ما ليس ينجي من الأندار
وهل من صفة البجالة العلى أن يقف جامد العقل إزاء ما يروى
عن عاشوا في القرن الثاني مهما ابتعدوا عن السذاجة وفساد الفساة ؟

لا شك أن ماروي الدكتور عن حياة امرئ القيس منسجم مطرد ، وهو حجة دامغة معقولة ، لو أن ما كتبه (وهو عين ما يدرسه طلاب الصف الثالث الثانوي) ، هو كل ما يروي في الكتب ويستنتج بعد المحاكمة ، ولو أنه صحيح ثابت ، ولكنه ناقص سقيم حين سمع الناس أن امرأ القيس شخصية خيالية ، وحين يعلم أن الرواة اختلفوا في اسمه وكنيته وذريته : فهو حندج وهو قيس ، واسم أبيه عمرو واسم أبيه حجر ، واسم أمه فاطمة واسم أمه علك ، وكنيته أبو لب وكنيته أبو الحارث ، وأنه لم يكن له ولد ذكر ، وأنه يثد بنتاً جيماً ، وأن له بنتاً يقال لها هند ، وأنها لم تكن بنته ، وإنما كانت بنت أبيه ، وأنه يعرف بالملك الضليل ، وأنه يعرف بندي القروح .

فكان عليك يا دكتور أن تستخلص من هذا الخليط المضطرب ما تستطيع أن تسميه « منسجم مطرد » ، وما تستطيع أن تسميه حقاً أو شيئاً يشبه الحق ليجوز لك أن تسلم بوجود امرئ القيس وأن تقول : « إن ما يروي عنه « لم يكن أكذوبة » من أكاذيب القصص » .

أليس جديراً بكتاب يسمى « بعث الشعر الجاهلي » أن يستمرض ما ذكرت ، وزيادة عليه بما يشم منه رائحة الأساطير

ولكن كيف برأه ودافع عنه دفاع المحامى المخرج البرهان والدامغ للحجة ؟

إنه يقول (ص ٩٣) « إن حماداً يستطيع أن يقول البيت أو الأبيات القليلة من الشعر المتذلل وأن يدسها في شعر أحد الجاهليين ليدل بذلك على أنه أغزر علماء وأصدق رواية من غيره من الرواة ، ولكنه لا يستطيع أن يقول قصيدة واحدة ذات شخصية أدبية وقيمة فنية » ثم يقول إن شاعرية حماد لا تساعده « على وضع الشعر البليغ وإضافته إلى فنون الشعراء »

لا تطلب مني أن أضيق الرسالة بما يروى عن حماد وبما يؤثر عنه من شعر جيد وصين ، وفن في النظم فريد ، وشيطة في الانتحال عجبية ، وتقليد للشعراء يعجز عنه أعظم شاعر فحل ؛ ويكني أن أذكر أن أهل الكوفة مجمعون على أن أستاذهم في الرواية حماد : عنه أخذوا شعر العرب ، وأنه شاعر مجيد يصل من التقليد والمهارة فيه إلى حيث لا يستطيع أحد أن يميز بين ما يروى وينتحل

ويقول الفضل الضبي - والدكتور يشق به كل الثقة - إن حماداً قد أفسد الشعر إفساداً لا يصلح بعمده أبداً . فلما سئل عن ذلك : ألحن أم أخطأ ؟ قال : ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ ومحدثنا عنه محمد بن سلام - والدكتور لا يشك في روايته أيضاً - أنه دخل على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فقال له بلال : ما أطرفني شيئاً ؟ فعاد إليه حماد فأنشده القصيدة التي في شعر الخطيئة في مدح أبي موسى . قال بلال : ويحك ! بمدح الخطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أروى شعر الخطيئة ! والرواة أنفسهم يختلفون في قائلها فمنهم من يزعم أن الخطيئة قائلها حقاً وكان يونس بن حبيب يقول : العجب لمن يروى لحامد ، كان يكسر ويلحن ويكذب

وثبت كذب حماد الرواية للمهدي فأمر حاجبه فأعلن في الناس أن يبطل رواية حماد

فهل صحيح يادكتور ما تقوله من أنك قد « أحصيت ما عرف لحامد من الشعر ، على أنه له ، أو على أنه محمول على بعض

وإذا سلمنا جدلاً أن القصيدة من ناحية السند صحيحة ، أليس يحسن به أن يمتحن صحة منها ؟ إنه لم يتكلف عناء ذلك في جميع ما روى من الملتقات

يادكتور أن أكاذيب كثيرة حملت على الجاهليين ونسبت أحاديث خرافة لا تخص إليهم في عهد الإسلام ، وأضيفت مقادير وافرة من الأباطيل إلى تاريخ كل شعب وكل جيل ، وحاشاك أن تجهل الافتقالات التي يملها تضارب المصالح والأهواء ويقتضيها تطاحن الأفراد والجماعات ، مما يجب ألا تتواطأ عليها بالسكوت والتسليم ، فلا تحسب أنك حين تزمت بعض الرواة عن الاختلاق والكذب بحق لك أن تقول بكلام المنتصر الغالب : « إذن لنفرغ لدرس هذه القصيدة (ص ١٩) ، فإن الباحث النصف من شأنه أن يحقظ ويحترز من كل ما يروى ، وليس من الصحيح أن تقول إن فلاناً مشهور بالصدق فيجب أن نأخذ عنه كل شيء على علاقته مطمئنين راسخين

هل تعرف عن « مدرسة الرأي » التي انتشرت في القرن الأول والثاني للهجرة التي كانت تشترط فيما يؤخذ به من حديث شروطاً لا يسلم معها إلا القليل ، حتى غالى قوم فرأوا عدم الأخذ بالحديث بئناً ؟

أليس جديراً بك يادكتور أن تعف موقف « اللاربيين » الذين شكوا في صحة الأحاديث ولم يكن بينهم وبين قائلها صلى الله عليه وسلم أكثر من قرنين ؟ تذكر أنك في القرن الرابع عشر للهجرة ، وأن الذي نرويه شعر وليس حديثاً لا يختلف إلا من عرض نفسه لنضب الله وناره

يقول الدكتور (ص ٩٢) « إنى أحاول في هذا الفصل أن أثبت جاهلية الملتقات أو - المطولات السبع - ومتى تم لنا القول بأن هذه القصائد السبع جاهلية حقاً ، فإننا نكون قد أتقنا أعجده صفحات الشعر الجاهلي من الجحود والإنكار . ذلك لأن هذه المطولات أقوى وأجمل وأمتع ما وصل لنا من الشعر الجاهلي على الإطلاق » إن الدكتور يريد أن يثبت « بالجملة »

هل تعلم ما هو السلاح الذي دافع به عن الملتقات حتى خيل إليه « أن القصائد السبع جاهلية حقاً ؟ » إنك لا تعلم حتى أقول لك ! إنه اقتصر على تبرئة حماد الرواة عن قولها لا غير

الشراء الجاهلين أو المخضرمين ، فكان كله أربعة وعشرين بيتاً ، وأن حماداً لا يستطيع أن يقول قصيدة واحدة ذات شخصية أدبية وقيمة فنية ، وأنه لم يدس في الشعر غير البيت أو الآيات القلائل ؟ وما لنا والإطالة ؟ فهل يشك أحد — غير الدكتور مهدي البصير — في أن حماداً كان يسرف في الرواية والتكثر منها ، وأنه في ذلك أخباراً لا يكاد يصدقها أحد ؟ فلم يكن يسأل عن شيء إلا عرفه ، وقد زعم للوليد بن يزيد أنه يستطيع أن يروي على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة لم يعرفهم من الشعراء . قالوا : وامتنحنه الوليد حتى نخبر فوكل به من أتم امتحانه ثم أجازه لا تظنوا مما حدثكم به أني أريد أو أحاول أن أبدى رأياً في الشعر الجاهلي ، وإنما كل ما طعمت فيه أن أبين لكم أن الكتاب الذي بث الشعر الجاهلي ، كما يخيل إلى صاحبه ، يرى مما يدعى أو يتخيل ، وأنه خال من العمق ، وهو سطحي كما يقولون . أو قولوا إنه شرح لمعانى الملتفات على أنها آيات منزلات أكثر منه محاولة لبث الشعر الجاهلي ، وهو قائم على الإيهام والتضليل لن لم يؤت نصيباً من الأدب ، وعلى النفلة والانخداع . والباحث يخيل للقراء أو قل يخيل إليه أنه قد أحاط بالأدب والأدباء الجاهلين مع أنه لم يحط من ذلك بشيء . وإنما عرف صياغة بعض الجمل ، وعلماً عامياً اقتطفه من الكتب اقتطافاً .. وآية ذلك أنه في بحثه الجديد الذي سماه « بث الشعر الجاهلي » لم يكشف للناس عن شيء جديد في أمر هؤلاء الشعراء الجاهلين وشعرهم ، وإنما ظل هؤلاء عند من يشك كما كانوا ، بل زادوا شكاً وارتياباً .

هذا النحو من البحث السطحي شر ، لأنه قاصر وعقيم ، ولأنه لم يأت بالثمرة المطلوبة أو بما يشبهها ، ولأنه لا يمت إلى العلم بصلة ، ولأنه لا يصلح إلا للمتوسطات من المدارس . لقد حدثتكم عن الوجه الأول والثاني ، وقد كدت أن أنسى الوجه الثالث وفيه اقتراف المؤلف من الأحكام الخواطر والتفسيرات السقيمة والآراء الفظيرة ما جعلنا نذكره ونشعر بضرورة الهداية والإصلاح والجهاد في سبيل الأدب والأدباء .

يشرح الدكتور معنى البيت :

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم قائل : إن الشاعر « يظن أنه يعرف ماضي الحياة وحاضرها لأنه

رأى ، ولكنه يجهل مستقبلها » (ص ٤١) وهذا الشرح معقول مقبول لا يختلف فيه اثنان ، ولكن مما يدعو إلى النظر والتروى ما يستنتجه الدكتور من قول الشاعر : « ولكنني عن علم ما في غد عم » إذ يزعم « أنه لا يؤمن بالبعث » (ص ٤١) . إن هذا الادعاء باطل ؛ فإن الرواة يتحدثون أنه تنبأ بظهور الإسلام وأوصى ابنه كعباً وبجيراً أن يسلما . وهم يروون له أشعاراً كثيرة فيها أصول دينية . وذكر أبو عبيدة عن قتيبة ابن شبيب بن العوام بن زهير عن آبائه الذين أدرکوا بجيراً وكعباً ابن زهير قال : كان أبي من مترهبة العرب وكان يقول : « لولا أن تغتدوني لسجدت للذي يحيي بعد الموت » قال : ثم إن زهيراً رأى قبل موته بسنة في نومه كأنه رفع إلى السماء حتى كاد يس السماء بيده ثم انقطعت به الجبال ، فدعا بنيه فقال : يا بني ، رأيت كذا وكذا وأنه سيكون بمدى أمر يعلو من اتبعه ويفلج ، فخذوا بحظكم منه ، ثم لم يمض إلا يسيراً حتى هلك فلم يحل الحول حتى بث رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولنسلم أن هذه الروايات مفتعلة محمولة على زهير ولتدعها جانباً ، ولترجع إلى الشاعر نفسه نسأله عن رأيه في البعث فيقول لنا دون تردد :

فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم فاتق الله يا دكتور في دين الناس ، ولا تضل ظواهر الكلام ، فإن الشاعر يريد أن يقول في بيته الذي أخذته عليه : وما تدرى نفس ما ذا تكسب فداً ، وأنها لا تعلم الغيب

عفا الله عنك يا دكتوراً فلولا أنك كنت تلبس اللمعة وترتدى القباء وكنت شيخاً في الظاهر والباطن ، كما هو معروف عنك قبل أن تقصد باريس ، لآتهمناك بنكران الحساب وبرأنا زهيراً أألسنت أنت الذي تقول في قصيدة وجدانية قلها في نهر اللبس (ص ١٥١)

لا تحسبن لماض ولا لآت حساباً

من يدرى ! لعل الدكتور قد زاع قلبه حين أحسن بجلال طبيعة فرنسا وحين تضائل جلال الله أمام جلال نهر اللبس ؟ سبحانك يا رب الأعظمية (يتيم)

فطيل أمم طيل